مجلة جامعة الخليل للبحوث
المجلد (5)، العدد (1)، ص (221-238)، 2010

الصفحة الإلكترونية للمجلة
http://www.hebron.edu/journal

التمرد الديني والاجتماعي في شعر أبي دلامة

محمد دوابشة -*عباس لمصري

قسم اللغة العربية والإعلام ، الجامعة العربية الأمريكية، جنين- فلسطين.

الملخــص:

يَهْدِفُ هَذا البَحْثُ إِلَى التَرْكيزِ عَلَى سُلوكٍ غَيْرِ مَقْبُولٍ دينياً واجتماعيّاً عِنْدَ أَحَد شُعَرَاءِ العَصْرِ العَبّاسي المُخَضْرَمين ، وَهُوَ « أَبوُ دُلامَة « ، مستنطقاً أشعاره التي خرج فِيْهَا عَنْ عَادَات المُجْتَمَع وَتَقَاليدِه وَمُعْتَقَداته ، فَوَصَلَ بِهَا إِلَى دَرَجَةِ التَّمَرُّد ، وَهُوَ سُلُوكٌ يَتَّصِفُ فِي جُزْءٍ مِنْهُ بِالعَداءِ والكَرَاهِيَّة لِمُجْتَمَعِ العَصْرِ الذي عَاشَ فيه، كَمَا يُرَكِّزُ البَحْثُ على الأَسْبَابِ والدَّوَافعِ لِهَذا التَّمَرُّدِ وَنَتَائِجِه الاجْتماعيَّة والدِّينية ؛ مِنْ خِلالِ دراسَةِ أَشْعارِ الشّاعِرِ وَمُنَاقَشَتِها وَتَحْلِيلِهَا ، مُعْتَمِداً المَنْهَجَ الوَصْفِيَّ التَّحْليْليَّ كَوْنَهُ أَقْرَبَ المَنَاهِجِ لِدِراسَةِ المَوْضُوعِ .

Abstract :

This research sheds light on a behavior which is unacceptable neither socially nor religiously for «Abu Dulama» who lived in both the Umayyad and Abbasid eras.
This will be through studying his poetry in which he turned away from his society's beliefs, habits and traditions, so he became rebellious – a behavior which carried hatred and enmity to the society that he lived in. The research also looks for the reasons for this rebelliousness and its social and religious results through studying and analyzing his poetry following the analytic and descriptive method since its the best method for studying this topic.

---

* بريد الباحث الإلكتروني : a.masri@aauj.edu

المقدمة:

يختلفُ العصر العباسي عن غيره من العصور لأسباب شتى ، منها: السياسية والاجتماعية والدينيةً والثقافية ، وكل له أسبابه ودوافعه ونتائجه . وباتساع رقعة الدولة العباسية، ضعف مركز الخلافة في بغداد وتخلخل نظامُها، فظهرت الثورات في مناطق مختلفة، ممّا أدى إلى ظهور التمرد في بعض مناطق الدولة، كردة فعل على الانحرافات والتجاوزات ، فظروف الحياة في المجتمع العباسي، قد هيأت لظهور تيار المجون وانجراف بعض شعراء العصر فيه ، فسرعان ما اصطبغ المجون بصبغه الزندقة . ولم تكن الزندقة في هذه الحالة فلسفة أو موقفاً اعتقادياً متكاملاً، بل كانت مجرد وصف إضافي للماجن، وسلوك من سلوك الظرفاء والمتظرفين.

يميز حياة الشعراء في هذا العصر عن سابقه، الاستقرار والترف؛ إذ تعددت ثقافتهم وتنوعت معارفهم، ممّا أغنى مداركهم، ووسع مخيلاتهم وأرهف مشاعرهم، ورقق إحساسهم [1]، فقد كانت سياسة العصر السابق مجحفة بحقوق الناس – أحياناً –، إذ استأثر بعض الحكام الأمويين بموارد الدولة وبذروا وأسرفوا وصرفوا أموال الدولة في ما لا طائل منه، فجاءت صورتها سلبية في بعض المواقف، ممّا ساعد على النقمة ضد الحكم، وخلق أرضية صالحة لنمو الثورات ونشوبها، فحرك مشاعرهم وأحاسيسهم بعد أن رأوا قضاياهم الإنسانية والحياتية في خطر شديد [2]، مما مهّد الطريق أمام بعض الحركات والأحزاب ذات العلاقة للظهور، فظهرت حركة الزهد؛ بسبب الاختلال السياسي والديني والاجتماعي ، يضاف إلى أنها دفعت بعض الشعراء إلى التمرد ؛ ذلك أن قوماً ما،يئسوا من الغنى،ورأوا أن نفوسهم لا تطاوعهم للقرب من ذوي الجاه،أو حاولوا ذلك ففشلوا،فلجأوا إلى القناعةِ يروضّون أنفسهم عليها... وقوماً عافت نفوسهم ما رأت من شهوات وشهوات،وللوصول إلى كل شهوة متاعب وعقبات؛ففضلوا أن يقمعوها[3].

فشعر الزهد بلغ ذروته في العصر العباسي؛ لأسباب سياسية واجتماعية وفكرية، علاوة على الفوضى الدينية وتيارات الزندقة والإلحاد وبعض المذاهب والديانات الأعجمية المختلفة [4].

كما يميز العصر العباسي الأول كثرة شعراء المجون، وما يرتبط به من وصف الخمرة؛ لأسباب مختلفة، منها أن كثرة الشعراء كانوا من الفرس في هذا العصر، وكثرة الملل والنحل، يضاف إلى ذلك كثرة الرقيق ودور النخاسة[5]، وإذا كان المجون والعبث والزندقة وغير ذلك من الانحرافات الأخلاقية، قد شاعت في العصر العباسي، فليس معنى ذلك أن المجتمع كان بمجمله منحلاً، وأن الناس قد تخلوا عن حياة الطهر والفضيلة والاستقامة، وإذا كانت حانات الكرخ في بغداد ودور النخاسة والديارات وحتى قصور الخلفاء وأولي الأمر قد اكتظت بالجواري والإماء والقيان، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالنساك والعباد والقراء وبأولئك الذين اتقوا الله واستشعروا تفاهة هذه الدنيا، فلم تشغلهم زخارفها [6].

إنّ التمرد في طبيعته ثورة على الواقع الذي يعيشه الشخص ؛ فالثورة والتمرد انعكاس لشخصية الشاعر أو الثائر أو المتمرد ُ فهو « تعبير عن نقمة شعبية عارمة على نظام حكم فاسد طاغ،أو صراع فكري وديني، أو انحراف اجتماعيً وانحلال أخلاقي»[7]، والرفض للواقع والتمرد عليه ليس جديداً على العصر العباسي ، فقد وجد في الشعر الجاهلي والإسلامي والأموي ، وما الصعلكة إلا دليل على ذلك ، وهذا يقودنا إلى أن شعر الثورة أو التمرد «يعتبر ظاهرة من ظواهر الوعي البشري ، وعملية رفض للواقع المنحرف المعاش سياسياً أو اقتصادياً أو اجتماعياً أو فكرياً أودينياً ، وقد تجلى هذا الرفض

منذ الجاهلية ، خاصة عند جماعة الصعاليك» [8]، ويرجح الجهشياري أنّ الأوضاع الاقتصادية كانت في طليعة الأسباب التي قادت إلى الثورة والتمرد؛ كون المجتمع العباسي قد ضمّ فئاتٍ وأجناساً شتى، عاش كل منهما في مستوى معيشي معين، فكان فيه العربي والفارسي والتركي والرومي والزنجي، وتعددت بذلك اللغات المحكية،وكان لا بد في هذا المجتمع المتعدد الجنسيات من حصول تباين واختلاف في الأهداف والاتجاهات، والميول والتطلعات، حتى بين أفراد الجنس الواحد، فالأوضاع الاقتصادية هي ميزان العلاقات بين أفراد المجتمع وبين الطبقة الحاكمة فيه [9]، بينما يرى طه حسين أن أسباب التمرد ترجع إلى الأزمة السياسية التي مر بها هذا العصر ، فقد أثرت في الأخلاق وفي الحياة العقلية ، ومضى المندفعون إلى أقصى حدود الإسراف والحرية التي تتجاوز فيها الحدود المعقولة ، وأسرفوا في العبث والمجون في الحياة العملية ، وجهروا بالآراء التي تخالف الدين في آرائهم وحياتهم الفعلية ، كما خرجوا كذلك عن التقاليد الفنية التي ألفوها[10]، في حين يرى عز الدين إسماعيل أن هناك تكاملاً بين الأسباب السياسية والاقتصادية أدت إلى الثورة والتمرد على الواقع المعاش آنذاك، فإذا كنا نرى الخليفة المهدي يسمح لنفسه بلون من ألوان اللهو، وفي الوقت نفسه يحمل أكبر حملة على الزندقة، فهذا مؤشر على اتجاه الدولة آنذاك، فهي لا ترفض اللهو ومجالس الطرب،حيث يكون افتتان الشعراء في شعر الغزل وحيث تكون براعات الملحنين والمغنين، ولكنها ترفض أي دعوة مذهبية، لذلك فإن الزندقة الاعتقادية كانت تجر على أصحابها الويلات، إذا انكشف أمرهم– أما الزندقة الاجتماعية المجونية فلم تكن لها– في منظور الدولة خطر كبير[11]، ولكننا نرى أن السبب الأساس يكمن في سياسة الدولة، وعلاقتها بأفرادها وبخاصة أنها قامت على أنقاض دولة بني أمية، وبالتالي فإن الأسباب الاقتصادية والاجتماعية هي أسباب ثانوية، وهي نتيجة طبيعية للنظام السياسي القائم.

الشاعر: حياته وسلوكه :

تتميز المصادر والمراجع التي ترجمت لأبي دلامة، بتكرار ما أورده عنه الأصفهاني في أغانيه [12] فهو عند الأصفهاني، زَنْد بن الجَوْن ، وأكثرُ الناس يُصَحِّف اسمَه فيقول « زيد » ؟ بالياء ، وذلك خطأ، وهو زَنْد بالنون ، وهو كوفيٌّ أسودُ ، مولىً لبني أَسَد، كان أبوه عبداً لرجل منهم يقال له فضافض، فأعتقه وأدرك آخرَ أيّام بني أميّة ، ولم يكن له في أيّامهم نباهة، ونبغ في أيام بني العبّاس ، وانقطع إلى أبي العباس وأبي جعفر المنصور والمهديّ ، فكانوا يقدِّمونه ويَصلونه ويستطيبون مجالستَه ونوادرَه، وقد انقطع إلى رَوْح بن حاتم المُهَلَّبِيِّ أيضاً في بعض أيّامه ، ولم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دُلامة من المنصور خاصّةً ، وكان فاسدَ الدِّين، رديءَ المذهب ، مرتكباً للمحارم مُضَيِّعاً للفروض ، مجاهراً بذلك ، وكان يُعْلَم هذا منه ويُعْرَف به ، فيُتَجافَى عنه للُطْف مَحَلِّه وكني أبا دلامة باسم جبل بمكة يقال له أبو دلامة كانت قريش تئد فيه البنات في الجاهلية، وهو بأعلى مكة [13]، ، بينما يصفه ابن المعتز بأنه « كان ماجناً خليعاً» [14] وهذا ما كرره النويري في نهاية الأرب[15] ، وأخباره قليلة في العصر الأموي، وبخاصة أنه كان عبداً حبشياً؛ إذ إن العبيد والموالي، لم يكن لهم كيان في عهد بني أمية[16]. والراجح أنه ولد في نهاية القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني الهجري ، أما وفاته فالراجح أنها كانت عام 161هـ [17].

أولاً: التمرد الديني :

التَّمَرُّدُ لُغَةً : مَرُدَ عَلَى الأمْرِ ، بالضَّمْ ، يَمْرُدُ مُروداً وَمَرادةً ، فهو ماردٌ ومَريدٌ ، وَتَمَرَّدَ : أَقْبَلَ وعتا ، والمرِّيدُ : الشّديد المَرادة مثل الخِمِّيْر والسِّكِّيْر ،

والمَارِدُ من الرّجال : العاتي الشديد ، والمُرُوُد على الشيء ؛ المُروُنُ عليه ، ومَرَدَ على الكَلام أي مَرَنَ عليه ، لا يَعْبَأُ بُه [18] قال الله تعالى:« وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَة مَرَدُوا على النِّفَاق لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلى عَذَاب عَظيْم»[19] والمَرادةُ: مصدر المَارد ، والمَريدُ : من شياطين الإنس والجن، وقد تَمَرَّدَ علينا أي عتا ، مَرَدَ على الشرِّ وَتَمرَّدَ أي: عتا وطغى ، والمَريدُ: الخَبيثُ المُتَمَرِّدُ الشِّرِّير ، فالمَرْد : التَّطَاوُل بالكبر والمعاصي [20] لذا يكون التمرد وفق المعنى اللغوي: الخروج بالشيء عن المعتاد والمتداول والزيادة فيه زيادة لافتة للنظر.

أما اصطلاحاً فهو: نمطٌ سلوكيٌ مبالغٌ فيه ، خارجٌ عن حد المألوف ، وهو شعور بالرفض لكل ما يحيط بالفرد ، وما يترتب عليه من سلوك ، قد يتصف بالعداء والكراهية والازدراء ، لكل ما اصطلح عليه المجتمع من قيم وعادات ونظم ، أو هو السلوك الرافض لكل ما استقر عليه المجتمع وألفه من عادات وتقاليد[21]،وهذا هو الذي نسعى إلى التركيز عليه وإبرازه في شعر أبي دلامة،إذ نجد هذا المعنى واضحاً وجلياً من خلال خروجه عن المقبول ، الذي انعكس في بعده – أحياناً – عن الدين وعادات المجتمع وتقاليده، أورد الأصفهاني في أغانيه أنّ سليمان بن مخلد المورياني اشتكى أبا دلامة لأبي جعفر المنصور، فقال: إن أبا دلامة معتكفٌ على الخمر فما يحضُر صلاةً ولا مسجداً ، وقد أفسد فتيانَ العسكر ، فلو أمرتَه بالصلاة معك لأُجِرْتَ فيه وفي غيره من فتيان عسكرك بقَطْعه عنهم ، فلمّا دخل عليه أبو دُلامةَ ، قال له : يا ابنَ اللَّخْناء ، ما هذا المُجون الذي يبلُغني عنك! ، قال أبو دُلامَة: يا أمير المؤمنين ما أنا والمجونَ وقد شارفتُ بابَ قبري! قال له المنصور: دَعْني من استكانتك وتَضَرُّعك ، وإيّاك أن تفوتَك صلاةُ الظهر والعصر في مسجدي ، فلئن فاتتك لأُحْسِنَنَّ أدَبك ولأُطِيلَنَّ حَبْسَك ، فوقع في شرٍّ ولَزِم المسجدَ أيّاماً ، ثم كتب قصَّتَه ودفَعها إلى المهديّ فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

أَلَـمْ تَرَيَا أَنَّ الخَليفَةَ لَزَّني
بِمَسْجِده والقَصْرِ ما لي ولِلْقَصْرِ
فَقَدْ صَدَّني عَن مَسْجِد أَسْتَلِذُّهُ
أُعَلّلُ فيه بالسَّمَاع وبالخَمْرِ
وَكَلَّفَني الأولى جَميعاً وَعَصْرَها
فَوَيْلي مِنَ الأولَى وَعَوْلي مِنَ العَصرِ
أُصَلِّيهما بالكُره في غَيْر مَسْجِدي
فما لي مِنَ الأولى ولا العَصرِ مِنْ أَجْرِ
يُكَلِّفُني من بَعْد ما شِبْتُ تَوْبَةً
يَحطُّ بها عَنّي المثاقيلَ مِنْ وِزْرِي
لَقَد كَانَ في قَوْمي مَسَاجِدُ جَمَّةٌ
وَلَم يَنْشَرِحْ يَوْماً لِغشيَانِها صَدْري
وَوَاللهِ ما لي نِيَّةٌ في صَلاته
ولا البِرُّ والإحْسَانُ والخَيرُ من أَمْرِي
وَمَا ضَرَّهُ واللهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ
لَوْ أَنَّ ذُنُوبَ العَالَمِينَ على ظَهري [22]

ربما كان الشاعر يتحدث بفكر الخليفة وعقله ؛ إذ لا يمكن أن يتحدث بهذه الجرأة لولا التصريح الواضح من الخليفة، وهذه المقطوعة تدلل على ذلك، فهو يعترف أنْ لا علاقة له بالدين الإسلامي كما في قوله : « وواللهِ مالي نيةٌ في صلاته » ، إضافة إلى بعض الكلمات التي تشير صراحةً على ذلك : « لزّني – صدّني – كلفني – أصليهما بالكره « والتشديد هنا فيه دلالة على أنّ هذه النفس مكرهة على فعلها، ثم كثرة استخدامه لأدوات النفي تأكيد آخر ، كما في قوله : « مالي – فمالي – ولا العصر – ولم ينشرح – مالي نية – ولا البّر – وما ضرّه» فالتمرد هنا ينطلق من نفسية الشاعر ، واستخدامه لأفعال النفي تحمل طابع الصرامة والحدة في التمرد والإصرار عليه، فهو شاعر متمرد ، على الرغم من

إداركه أن مجتمعه لا يقبل منه هذا المسلك ، كما أن النص ترجمة لنفسية الشاعر ، الذي يعيش في صراع نفسي واضح ، فهو بين ما يطلبه الدين وما تطلبه نفسه ، فتمرده هنا ربما يُشعر القارىء أنه على عداء مع الدين ، وبخاصة حينما يقر ذلك في قوله : «أصليهما بالكره ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدري – ووالله مالي نية في صلاته» « فهو مكره على ذلك وإن فعل .

استخدم الشاعر أنماطاً مختلفة من الجملة الفعلية؛ ليناسب الدلالات والمعاني التي عبر عنها، من خلال المزاوجة بين الأفعال الماضية مرة والمضارعة أخرى، فالفعل دعامة أساسية من دعامات الجملة؛ إذ إن «غياب الفعل خاصة يجرد الصرح اللغوي من الأساس الذي يدعمه » [23]، وبما أن الشاعر يعبر عن أحوال ودلالات ومقامات تتنوع بين ثبات وحركة وصراع ذهني خارجي وداخلي، فقد لجأ إلى هذه الصيغة من الأفعال، إذ ورد في هذا المقطع أربعة عشر فعلاً، منها ستة ماضية وثمانية أفعال مضارعة، فجاءت قيمة الأفعال من خلال عنصر الزمن الذي يلازمها،ثم يختم كلامه بالبيت الأخير الذي يتظارف فيه ، فيتساءل – وهو يدعو للمنصور بغفران ذنوبه – ماذا يمكن أن يضير المنصور نفسه لو كانت ذنوب العالم كلها على ظهر أبي دلامة ، مثل هذا القول لم يكن يؤخذ على أنه زندقة حقيقية ، بل كان يحمل على الزندقة المجونية ، التي تستهدف التظرف [24].

يبدو تمرد الشاعر في هذه الأبيات واضحاً، بخاصة، حين حاول تبرير عدم اهتمامه بالصلاة وزيارة المساجد، علماً أن تبريره لا يرقى لمستوى الإقناع ، فهو يخاطب السامع؛ ليعكس جانباً من الواقع العام في عصره، ويمثل فئة من الشعراء الذين يعيشون في الظروف نفسها، فيقول: ألم تريا؟ والرؤيا هنا دليل يتمسك به للدفاع عن تمرده وخروجه عن التعاليم العامة، ودلالة الأخبار على فعل ذلك استخدامه لمجموعة من المفردات،تؤكد أنه مجبر عليها، وهنا فرق شاسع بين ما فرضه الله –سبحانه وتعالى – على عباده من فرائض وسنن، والتكليف بعمل شيء محدد في زمن محدد ينتهي أثره بانتهاء الحدث. فهي وإن كانت تعليمات الخليفة تكليفاً للشاعر، إلا أنه يَعُدّها ثقيلة عليه، فهو يناقض نفسه ويعكس بيئته من خلال رفضه العمل وفق المفهوم الديني، وتمسكه بالقشور والشكليات التي تؤكد رفضه للواقع الذي يعيشه.

لجأ أبو دلامة في هذا المقطع، إلى أسلوب النفي بوصفه أحد خيارات التركيب الذي ظهر في شعرة بشكل واضح، وأسهم في تعقيد الجملة وحوّلها من جملة بسيطة إلى مركبة، وقد توسع في مفهومه في شعره فتجاوز « معنى الطرح والإخراج والاقتطاع» [25] وقدم طرائق تعبيرية شتى من الناحية التركيبية؛ لتتلاءَم مع تجربته الخاصة، لذا ألح الشاعر على هذا الأسلوب في كثير من المواضع؛ ليعزز المعنى المراد في ذهنه وتثبيته في ذهن المتلقي، كما جاء النفي بديلاً تعبيرياً؛ ليعوض عن حالات مثبتة غائبة، لم يجد ما يستخدمه للتعبير عنها، فلجأ إلى النفي المكثف.

كما نجد التمرد في اختياره لمفردات القافية والموسيقى الناتجة عنها وتكرار الراء المكسورة في نهاية الأبيات كما في قوله:« وللقصرِ– الخمرِ– أجرِ– وزريِ– أمري» كلها دلالة تشير إلى الاستمرارية، على الرغم من كونها دنيوية صرفة، وتلبية لطموح مؤقت يريده الشاعر وكذلك اجتماع الياء مع الكسرة، أحياناً، في نهاية القافية توحي بغرضين: المد والاستمرار للفعل الذي يقوم به بصرف النظر عن حبه أو كرهه لذلك العمل، وتحملها لصوت المعاناه والأنين؛ لأن الياء من أحرف العلة القوية فتبلغ قمة المعاناة عنده إذا ما رافقتها الكسرة، فحياته تتمثل من خلال قوله

يُكَلِّفُني مِنْ بَعْدِ ما شِبْتُ تَوْبَةً

يَحُطُّ بها عَنِّي المَثاقيلَ من وِزْرِي
لَقَد كانَ في قَومي مَساجِدُ جَمَّةٌ
وَلَمْ يَنْشرحْ يَوْماً لِغشْيَانِها صَدْرِي
وَالله ما لِي نيَّةٌ في صَلاته
وَلا البِرُّ والإحْسَانُ والخيرُ من أمْري [26]

وهناك بعض المواقف في ديوانه تدل على استخفافه ببعض قضايا الدين سواء في حضرة الخليفة، أم في أوقات عادة ما يكون فيها الشخص بحاجة إلى ربه، مثل حالات الوفاة، قيل: «إنّ حَمَّادةَ بنت عيسى تُوفِّيَتْ وحضر المنصورُ جنازتَها ، فلمّا وقف على حُفْرتها قال لأبي دُلامة : ما أعددتَ لهذه الحفرة ؟ قال : بنتَ عمِّك يا أمير المؤمنين حَمَّادةَ بنت عيسى، يُجاء بها الساعة فتُدْفَنُ فيها ، فضحك المنصور حتى غُلب، فستَر وجهه»[27]، ويمكن تفسير هذه الحالة الساخرة الهزلية لأبي دلامة، أنه كان يجد أحياناً الراحة النفسية، من خلال ممازحاته» فاللذة الكبرى التي يجدها المرء في الفكاهة والضحك إنما ترجع في الجانب الأكبر منها إلى الشعور بالتحرر من الواقع والتحلل من الحياه الجدية عن طريق الهزل والفكاهة والمزاح، ونظراً لما في المواقف الفكاهية من إنكار للواقع أو تجاهل له، فقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة تقوم في حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة اللاشعور» [28]، فالفكاهة تلعب دوراً مهماً في حياة بعض الناس بانكارها للواقع أحياناً واستبعادها للألم أحياناً أخرى، فالإنسان مزود بالأمكانات للتهرب من الشدائد وبعض المواقف، فيلجأ إلى السكر أو الضحك أو الفكاهة؛ كي يتحرر من الآلام والمعاناة، فتعيد إليه توازنه النفسي ولو لحين، وهذا ما كان يحصل مع شاعرنا، وبخاصة أنه يوجد كثير من الأبيات في ديوانه، تشير إلى هذا الجانب [29] .

وفي موقف آخر يظهر تمرده الديني الفاضح الذي يخرج فيه عن قيم الإسلام وتعاليمه السمحة من خلال بعض الأبيات التي يندى لها جبين الأدب العربي، يقول :

غَادِ هذا الكبابَ كُلَّ صَباحِ
مِنْ مُتُون الفَتيَّة السُّحَّاحِ
فَتُقَوِّيَ ذا الضَّعْفَ منكَ وَتُلفَى
عَنْ ليالٍ أصَحَّ هذي الصِّحاحِ
ذا شفاءٌ وَدَعْ مَقَالَةَ هذا
ناكَ ذا أُمَّهُ بِأَيْرِ رَباحِ [30]

من يقرأ مثل هذه الأبيات لا يتوقع أن قائلها عاش في مجتمع إسلامي ، فهو لا يقر بشربه للخمر وإنما يصر عليها ويتحدث عن فوائدها ، كما أننا نجده في الشطر الثاني يتلفظ بألفاظ لا نجد مثيلاً لها إلا في الشعر الجاهلي ،وربما الذي جعله يتلفظ بهذه الألفاظ، هو ارتباط الجواري آنذاك بمجالس الشراب والغناء، وبخاصة أنّ ذلك المجتمع كان يفضل الجواري على الحرائر، لما فيهن من ميزات لا يحققونها في الحرائر لجمالهن وظهورهن على الرجال، إضافة إلى ثقافتهن، وقد غلب على هذا المجتمع- مجتمع الجواري- الاستمتاع باللهو واللذة وشرب الخمر، فتحررت الصلة بين الرجل والمرأة، فلم يكن الوصول إليها عسيراً بل سهلاً ميسوراً [31] وهذا الأمر هو الذي جعل أبا دلامة ينطق بمثل هذه الألفاظ، يقول في قصيدة اخرى يصف فيها الخمرة

سَقاني أَبُو بِشرٍ مِنَ الراحِ شَرْبَةً
لها لَذَّةٌ ما ذُقْتُها لِشَرابِ
وما طبخوها غيرَ أن غُلامَهُمْ
سعى في نواحي كَرْمِها بِشِهابِ [32]

كان بعض الخلفاء الذين عاصرهم الشاعر يحبون العبث معه على الرغم من معرفتهم بسلوكه الديني، وربما أن هذا الأمر هو الذي شجع الشاعر، كما

شجع غيره على التمادي في التمرد والثورة على المجتمع ، وهذا ما رواه صاحب الأغاني في قوله:« إن أبا العباس كان يحب العبث بأبي دلامة، يسأل عنه، فيوجد في بيوت الخمارين لا فضل فيه، فعاتبه على انقطاعه عنه؛ فقال: إنما أفعل ذلك خوفاً أن تملني، فعلم أنه يحاجزه، فأمر الربيع أن يوكِّل به من يحضره الصلوات معه في جماعة في الدار »(33).

إن الأبيات التي خرج بها الشاعر على الدين الإسلامي جعل أبا الفرج يصفه بأنه فاسد الدين، رديء المذهب، وربما اعتمد الأصفهاني على بعض الأبيات التي خرج فيها عن المألوف ، إذ يتمنى في بعض أبياته لو كان بينه وبين الصوم من غلظ الأرض وحزونها ما يحول دونه ؛ فيشعر القارىء أحياناً بأن الشاعر بعيد عن تعاليم الدين الإسلامي، وبخاصة في صلب عقيدته، كالصلاة والصوم وليلة القدر ، يقول:

أَضْحَى الصِّيَامُ مُنيخاً وَسْطَ عَرْصَتِنَا
لَيْتَ الصِّيَامُ بأَرضٍ دُونها حَرَشُ
إنْ صُمْتُ أوجَعَني بَطني وأَقْلَقَني
بين الجَوَانحِ مَسُّ الجُوعِ والعَطَشُ (34)

فشدة بغضه رمضان، فتحت أفقاً رحباً لدى الشاعر في التعبير عن إحساسه الذي يعيشه، بخاصة حين يتمنى عدم وصوله للأرض التي يعيش فيها الشاعر، وإن وصل يكن بينه وبين الصوم مسافات شاسعة يفصلها تلال وهضاب وجبال تحول دون اختراق ذاك الشهر وما فيه من فرائض؛ لأن وصوله يسبب للشاعر الأرق والألم والهم؛ بسبب الصيام، والذي هو- دينياً- طاعة من طاعات الله سبحانه وتعالى، «ولا نذهب بعيداً إذا قلنا إنَّ الاتجاه الماجن في القرن الثاني للهجرة كان يمثله أعلامه من الشعراء» (35)، إنّ تجربة الشاعر هنا تقوم على نوعين من الصراع؛ صراع داخلي بين الجسدِ والروح ، صراعٍ يتحول في نفسه؛ لأسباب شخصية واجتماعية إلى رغبة مكبوتة ترتفع في نفسه إلى مستوى يتسامى فوق عادات المجتمع وتقاليده ، وصراع خارجي يدور في القصيدة بين الشاعر والمجتمع ،كما في قوله:

جَاءَ شَهْرُ الصَّوْمِ يَمْشِي مشْيَةً ما أَشْتَهيَها
قائداً لي لَيْلَةَ القَدَرِ كأني أبتغيها
تنطحُ القُبْلَةَ شهراً جبهتي لا تأتليها
وصبوحٍ وَغَبوقٍ في علاب أحتسيها (36)

يورد المرتضى في هذا المقام :« نشأ جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ، ويحقن بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله ودمه وماله ، زنادقة ملحدون وكفّار مشركون ؛ لأنهم يدخلون في الدين ويموهون على المستضعفين ، بما يظهرونه من لباس الدين، هم فيه على الحقيقة عار»(37)، ونحن لا نستطيع أن نلصق مثل هذه التهم بأبي دلامة، كالإلحاد والزندقة والكفر، كما أورد المرتضى، ولكن يمكن وصف الشاعر، لأسباب نفسية واجتماعية بالمتمرد؛ بسبب خروجه في بعض السلوك العامة كغيره من الشعراء، فكانت الخمرة ملاذاً ومهرباً له، كما هو الأمر عند بعض شعراء عصره، يقول:

ولَقَد عشتُ زَمَاناً في فيافيَّ وَجيها
في لَيالٍ من شتاء كُنتُ شيخاً أَصْطَليها
قاعداً أوقدُ ناراً لضَبَابٍ أشتَويها
ما أُبالي لَيلَةَ القَدرِ وَلا تُسمعُنيها
فاطلُبي لي فرجاً منـهَا وأجرِي لكِ فيها (38)

استطاع الشاعر أن يجعل من قصائده صورة صادقة من حياته، فقد أسقط عليها كثيراً من مشاعره، وعكس من خلالها معظم تجاربه النفسية التي انتهت به إلى رؤية خاصة، حققت له قدراً من اللذة الحسية، بما تشيعه في نفسه من مرحٍ وفكاهةٍ واستهتار،فهو يعرض ما يثور بنفسه من صراعٍ بين إقباله على الخمر واستمتاعه بها ، وبين تحريم

الإسلام لها، عرضاً يؤدي إلى تغليب نشوته ولذته على دينه، والاستخفاف بقواعده وحدوده في سبيل الفوز بالمتعة والنشوة ، فالراجح أن أبا دلامة كان ضعيف الدين، قليل الحيلة، لا يعمل عملاً إلا إذا كان له الأجر المادي المسبق ، فلم تؤثر فيه تعاليم الدين ، لم يتمرد الشاعر على السلطان أو السلطة الحاكمة، وإنما كان له موقف من الدين الإسلامي أولاً ومن المجتمع ثانياً؛ وكأن هناك عداءً بينه وبينهما.

وتركيزه على أدوات النفي « ما أبالي – لا تسمعنيها – ما اشتهيها» ، دليل واضح على أنه مقتنع بما يقول، وقد اتكأ الشاعر هنا على البناء القصصي، ولعل اعتماده على هذا الجانب هو الذي دفعه إلى الإكثار من الأفعال الماضية كما في قوله « جاءَ – عشت – كنت «، كما لجأ الشاعر إلى الأساليب الخبرية وأكثر من صيغ التنكير التي تحمل معنى الإبهام والتعميم مع أسلوب الرفض والنفي ، فالذي يساعد على الدخول في عالم هذا النص ليس معرفة غرضها أو مناسبتها بل هو إضاءتها وكشف أسرارها اللغوية وتفسير نظام بنائها وطريقة تركيبها وإدراك العلاقات فيها ، وهذا ما كشفت عنه هذه القصيدة ، فالمعطيات التعبيرية النفسية المبنية على تآلف المفردات جاءت صرخة مدوية لرفض الواقع الديني في فكر أبي دلامة .

إنّ الأبيات التي خرج بها الشاعر عن التعاليم الدينية، لها أكثر من دلالة وأكثر من تفسير ، فقد تكون النشأة التي نشأ بها أبو دلامة ، ومكانته الدنيا ، هي السبب في هذا التمرد ، فقد كان مولىً وكان أبوه عبداً ، فلا نسب يفخر به ، وديوانه يشهد بذلك ، فهو وضيع الأصل، ووضيع النشأة، ووضيع المنزلة ، وهو ليس بفارس شجاع ، وقصته مع مروان بن محمد مشهورة [39] ؛ وربما كان كسول النفس ضعيف الدين، وبخاصة أن نشاط الشعوبية أخذ يزداد في تلك الفترة ، فلذلك نجد تمرده صارماً ثقيلاً شديد النكاية ، بذيء العبارة في بعض الأحيان ، حتى أن تمرده على تعاليم الإسلام من جانب والواقع الذي يعيشه في عصرها من جانب آخر، جعل من حياته واقعاً مليئاً بالنفي، تمثّل في الذات (الأنا) ومحاولة انزياحها عن الجميع (نحن) من خلال الألفاظ التي يوردها في سياق الأبيات التي يقول فيها:

ما لَيلَةُ القَدرِ مِن هَمِّي فَأَطلُبُها
إنِّي أَخَافُ المَنَايا قَبلَ عشرينا
يا لَيلَةَ القَدرِ قَد كَسَّرتِ أرجُلَنَا
يا لَيلَةَ القَدرِ حَقّاً ما تُمَنِّينَا
لا بارَك اللهُ في خيرٍ أُؤَمِّلُهُ
في لَيلَةٍ بَعدَ ما قُمنَا ثلاثينا[40]

نلاحظ في هذه الأبيات، ظاهرة التكرار من خلال «ليلة القدر» والتكرار يخدم وظيفة مهمة في السياق الشعري، ويكون تأكيداً لدلالات معينة تعزز الفكرة المراد إيصالها، واللفظ المكرر بوجه عام مصدره الثورة وهدفه الإثارة حباً أو بغضاً في أي غرض من أغراض الكلام، وهو مرتبط بقانون التردد في قوانين تداعي المعاني، ولذا يعد وسيلة تربوية من وسائل التقرير[41]، فقد خرج الشاعر في هذه الأبيات بأسلوب النداء عن أصل استعماله، ووظفه لتأدية المعاني التي تنسجم مع توجهاته ورؤاه، وتعبر عن سيطرة هاجس الفوضى الدينية– إن جاز لنا التعبير – على نفسه، ونلاحظ في هذا المقطع تكثيف الإيقاع الداخلي من خلال كلمة «ليلة» التي استغلها من خلال الإنشاء الطلبي، لا من حيث استعمالها للتعبير عن معانٍ تؤديها فقط، وإنما عن معانٍ وحالات نفسية، تتناسب مع رؤيته الذاتية وتجربته الخاصة.

وإذا ما عرفنا أن الشاعر نشأ في الكوفة، فلا نستغرب منه هذه الأقوال، فقد كانت الكوفة وارثة المجون والحياة المترفة زمن الأمويين، فالغناء ومجالس اللهو والقيان، انحدرت من الحجاز ومكة والطائف، يضاف إلى أنها ورثت حضارة الحيرة التي كانت قبل

الإسلام موطن اللهو والترف، فأصبحت لظروف خاصة موطن طلاب اللذة ورواد المتعة، يقول:

وَلَقِيتُ مِنْ أَمْرِ الصِّيَامِ وَحَرِّه
أَمْرَيْنِ قِيسَا بِالعَذَابِ المُوْصَدِ
وَسَجَدْتُ حَتَّى جَبْهَتي مَشْجُوَجَةٌ
مِمَّا يُناطِعُني الحَصَا في المَسْجِدِ
فَامْنُنْ بِتَسْرِيحي بِمَطْلَكَ بالذي
أَسْلَفْتَنيه مِنَ البَلاءِ المُرْصَدِ[42]

والمتمعن في هذه الأبيات ، يرى أن الشاعر قد استغل جرس الألفاظ والكلمات ؛ لتؤدي غرضاً فنياً بلاغياً ، إذ شاكل بين ألفاظه ومعانيه مشاكلة دقيقة، وشدد على التوافق الصوتي بين الحروف والكلمات، كما في الرسم التوضيحي المرفق:

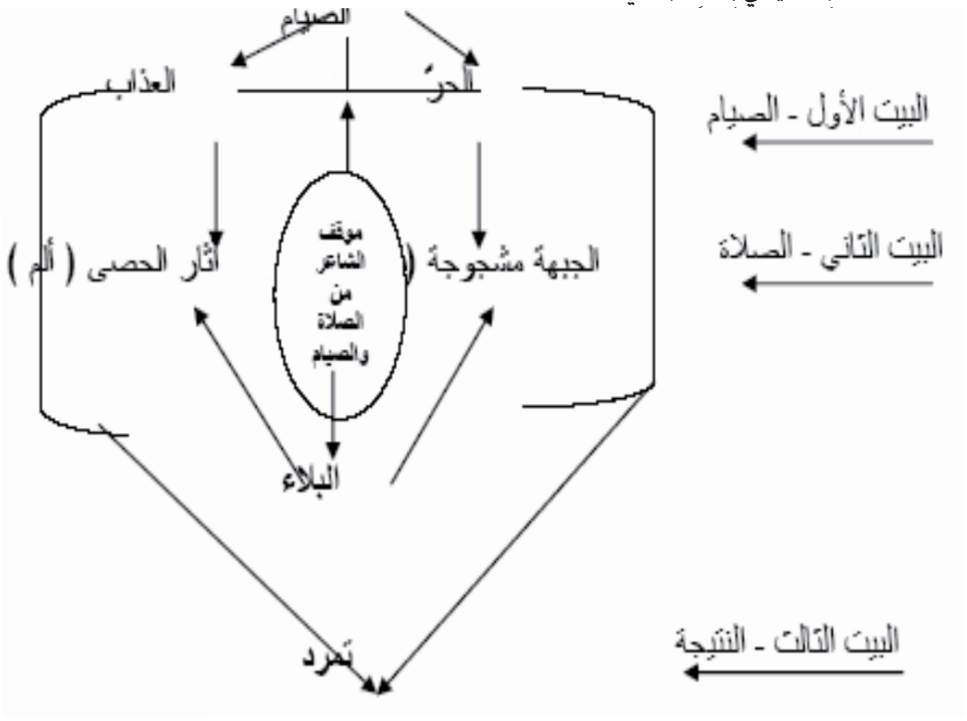

وهذا تصوير بلاغي تجسد في شعره الوصفي لشهر رمضان وليلة القدر فيه (الدين الإسلامي)، فهو وإن كره الفعل وتمرد عليه، نجده يمارسه مغرماً لغاية في نفسه، لا حباً فيه.

لا نستطيع أن نجزم بأن الشاعر كان متمرداً على الدين الإسلامي، وإن خرج على تعاليمه في بعض الأحيان، ولكنّ الراجح أن أبا الفرج، وهو أول من وصفه بصفات سيئة خارجة عن الدين، اعتمد على ما أورده هو نفسه من أقوال وأشعار، وهذا لا يكفي لاصدار حكم عام في قضية عقدية؛ لذلك نرى أن الشاعر كان – كما كان غيره – في ذلك العصر يروِّح عن نفسه في ظل الملذات واللهو والمجون في أوقات معينة، ولم يكن متزندقاً بمفهوم الزندقة، ثم إن ما قاله – وهو الشاعر – لا يعبر بالضرورة عما فعله ، وإن كان في نفسه شيء منه.

الجانب الاجتماعي :

ساد المجتمع العباسي تيارات مختلفة من اللهو والمجون وانتشرت دورهما ، وكانت تزخر بالخمر والغناء والقيان والغلمان ، وهذا ما لخصه لنا طه حسين في قوله : « لم يكد يبتدئ القرن الثاني حتى ظهر المجون وانتشر ووصل إلى قصور الخلفاء ، ثم كانت ثورة العباسيين ، فتم انتصار الفرس على العرب ..... فتم انتصار العبث والمجون »[43] ،وعقد أنيس المقدسي فصلاً خاصاً في كتابه « أمراء الشعر العربي في العصر العباسي» جاء بعنوان «بعض صور اجتماعية يعكسها الأدب العباسي» أورد فيه كثيراً من الأشعار والأقوال التي تنسب لذلك العصر، وتصور ذلك العصر تصويراً واضحاً، وكيف أنّ الأدب والشعر بخاصة صور ذلك اللهو والمجون والتيارات التي ساعدت على ذلك، وما إعادته هنا إلا من باب التكرار [44] ، وكذلك فعل حسين عطوان في بداية كتابه: مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول.

ولا نظلم العصر العباسي الأول إذا قلنا إنّ اللهو كان شائعاً بين أفراد الطبقات المتباينة ؛ بتأثير العوامل الاجتماعية المختلفة ، وليس ضرورياً لمن يريد أن يستبيح محرماً أن يجهر به بالاعتماد على قول النبي الكريم – محمد صلى الله عليه وسلم – « إذا ابتليتم فاستتروا »، إلا إذا كان له هدف آخر ، وهذا ما نلمحه في شعر أبي دلامة الذي يدعو فيه إلى شرب الخمر ، لأنها تشفي صاحبها من الأسقام. جاء في الأغاني « حينما عاد أبو دلامة إسحاق الأزرق، أحد أمراء العصر العباسي الأول ، وكان قد مرض مرضاً شديداً ، وعند إسحاق طبيب يصف له أدوية تقوي بدنه ، فقال أبو دلامة للطبيب: يا ابن الكافرة ! أتصف هذه الأدوية لرجل أضعفه المرض ! ما أردت، والله ، إلا قتله ، ثم التفت إلى إسحاق ، فقال : اسمع أيها الأمير مني ، قال : هات ما عندك يا أبا دلامة ، فأنشأ يقول :

فَإذا ما عَطِشْتَ فاشْرَب ثَلاثاً
مِنْ عَتيقٍ في الشَّمِّ كالتُّفَّاحِ
ثُمَّ عِندَ المَسَاءِ فَاعْكِفْ عَلَى ذا
وَعَلَى ذا بِأَعْظَمِ الأقدَاحِ
فَتُقَوِّي ذا الضَّعفَ منكَ وتُلفَى
عَن لَيالٍ أَصَحَّ هذي الصِّحَاحِ[45]

لقد اعتمد الشاعر هنا على فعل الأمر « اشرب – اعكف» بما يحمل من لهجة خطابية واضحة، والخطاب الأمري هنا جاء على وتيرة واحدة، وهي النصح والإرشاد– من وجهة نظره – لذلك يقدم قناعاته في ثوب النصيحة واستخدم الفعل للمفرد المخاطب، وفي المقابل يقدم الدليل والحجة على صحة ما يذهب إليه كما هو الأمر في البيت الثالث؛ والجانب الترتيبي في الأبيات وبخاصة بداياتها(الفاء / فإذا– ثم – الفاء / فاشرب / ثم– الفاء / فاعكف / عند الفاء / فتقوي)، ساعد على إبراز القيمة التعبيرية للكلمات وبالتالي إحداث الأثر المطلوب في فكر المجتمع، وتكشف أيضاً عن حالة اجتماعية نفسية، من خلال العلاقة التأثرية المتبادلة بين الشاعر والمجتمع، فكانت ردة فعل صريحة وعنيفة في الوقت نفسه. ونجد تفسيرهذا في علم النفس الحديث (وكثيراً تقف البيئة في سبيل إشباع دوافع الفرد، فتشعر بالتهديد والخطر، ويتكون دافع الخوف الذي إذا زاد على مستوى قدرة الاحتمال،يتحول إلى قلق يسيطر على سلوكه وشخصيته عامة) [46].

تأثر كثير من أدباء العراق وشعرائه، وبخاصة في البصرة بالحياة الاجتماعية اللاهية، فكان بشار وأبو نواس والحسين الخليع ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس ينزعون إلى الترف واللذة، ومنهم من كان يهدم القديم ويكتفي بالشك والمجون ويغرق في اللهو والعبث، وكانوا يعقدون المجالس والأندية لهذا الغرض، مما اضطر بعض الخلفاء من بني

العباس إلى أن يشنوا حرباً عليهم، وبخاصة بعد أن راحوا يتلاعبون بالسياسة[47]، وربما لهذا السبب اتهم بالزندقة والمجون والاستهانة بالدين، فجاءت زندقته زندقة اجتماعية، اتخذها وسيلة للتظرف وحسن المنادمة والانطلاق من قيود المجتمع[48].

ففي ظل الظروف الاجتماعية والفكرية والسياسية والاقتصادية المضطربة المتصارعة، تبدو ظاهرة الزندقة أو الإلحاد ضرورة حتمية، كما يزعم مصطفى هدارة [49]، ومن الأسباب التي ساعدت على بروزها في ذلك العصر، النهضة العلمية التي بدأت منذ أواخر العصر الأموي، وأعطت ثمارها في العصر العباسي، وتراوحت بين العلوم الفلسفية الجدلية والعلوم التجريبية وهذه النهضة هي التي حركت العقول وأعطتها الحرية في التفكير، فحرفت بعض المشتغلين بها إلى ضروب من الإلحاد والضياع[50]، فمن الطبيعي أن نجد هذه المجاهرة بهذا الفكر نابعة من طبيعة المجتمع وتركيبته آنذاك، يقول:

إنّي اصْطَبَحتُ أَرْبَعاً بالكاسِ
فَقَد أَدَارَ شُرْبُها برَاسِي
فَهَل بما قُلْتُ لَكُم مِن باسِ؟[51]

جاءت قافية السين المكسورة في نهاية الأبيات؛ لتساهم في تصميم الإحساس بالتمرد وتشيع في القصيدة نوعاً من الصراع الداخلي؛ لاتساع مجراها ووضوحه. وختم هذا المقطع بسؤال يحمل معنى التعجب والإنكار من هذا اللوم، وكأنه يقارن بين صورتين تتنازعان وتتمازجان في نفسه، صورة فكره وعقيدته الدينية التي يراها مع بني العباس، وصورة ذهنية غائبة حاضرة، وهي صورة الواقع الذي يقوم به والتمرد الذي يحاول أن يجعله نهجاً يسير ويصر عليه،فهذا التمرد والغلو فيه،يعد جرأة على الواقع الذي عاشه الشاعر في ظل الخلافه العباسية التي سادت فيها تلك العادات حتى غدت عنواناً عند بعض طبقات المجتمع العباسي ، فهي ثورة على التقاليد الاجتماعية السائدة ، ساعدها في ذلك تعدد العناصر المكونة للمجتمع ، وتعدد الثقافات، مما جعل الشعراء يدافعون عن مجونهم وتمردهم أمام الخليفة، وكأن الحدث أمر عادي ومألوف ، لا بل يطالبون بإيجاد التفسير ، إذا حبس بعضهم على شرب أو سكر يوماً ما ، نجدهم يفضلون السجن ضمن فئات معينة من المجتمع ، وهذا ما وجدناه في شعر أبي دلامة الذي خاطب فيه أمير المؤمنين حينما سجنه مع الدجاج، لنشوة انتابته وسكرة فعلها ، وهي لا تعد تهمة يُسجَنُ عليها الفرد ، من وجهة نظره ،يقول :

أَميرَ المؤمنينَ فَدَتْكَ نَفْسي
عَلامَ حبسْتَني وَخَرَقْتَ ساجي ؟
أَمِنْ صَهْباءَ ريحُ المِسْكِ فيها
تَرَقْرَقُ في الإناءِ لَدَى المِزاجِ
عقارٌ مِثْلُ عَيْنِ الدِّيكِ صرفٌ
كَأَنَّ شُعاعَها لَهَبُ السّراجِ
وَقْد طُبِخَتْ بنارِ اللّهِ حتَّى
لَقَدْ صارَتْ من النُّطَفِ النِّضاجِ
تَهَشُّ لها القُلوبُ وتَشْتَهيها
إذا بَرزَتْ تَرَقْرَقُ في الزُّجاجِ[52]

لجأ الشاعر إلى استخدام الأصوات الصفيرية استخداماً واضحاً في هذا المقطع، مثل أصوات السين والصاد والشين، وجاءت الأصوات في سياق الجمل؛ لتحدث صفيراً عالياً ومتدفقاً، مما يوحي هذا الارتفاع والانخفاض بهذه الأصوات بحركة نفسية مضطربة وقلقة وغير مستقرة؛ لتعكس نفسية الشاعر التي تحمل قدراً من الصراع الداخلي، فهو لا يلبث في مقام ذهني ولا يستقر على حال اجتماعي، فهو بين سكر وصحوة، بين المقبول والمرفوض، بين ما تطلبه نفسه وما يطلبه المجتمع، بين ما يطلبه هواه وما يطلبه الدين.

كما تمتزج في هذا المقطع الرؤية الدرامية بالرؤية القصصية عند الشاعر، فالدراما هي ذلك الصراع الذي يدور بين نقيضين في هذا المقطع، في حين أدت الحكاية إلى ربط الأحداث وتسلسلها، بحيث اعتمدت على الحدث الذي جسد التجربة الحقيقية وإبراز الانفعال فيها، مع إدراك الشاعر لذلك، فالصناعة الدرامية هنا، جمعت عناصر القص والحوار والقصصية والصراع، وصاغته صياغة شعرية خاصة، أدت إلى إظهار طاقات الشاعر الفنية، واستيعاب تجربته الشعرية التي ساعدت المستويات الفنية على إظهارها ودعمها في المظهر الفني لتجربة الشاعر.

كرر ابن المعتز ما رواه الأصفهاني عن أبي دلامة، فقال فيه «كان ماجناً خليعاً » [53] ، وهذا يدخل ضمن الزندقة الاجتماعية التي اتخذها أصحابها وسيلة من وسائل التظرف وحسن المنادمة على التحرر والانطلاق من قيود المجتمع[54] ، وهي زندقة اجتماعية دفعه إليها مزاجه الشخصي وضغط الحياة القاسية التي عاشها في نهاية الدولة الأموية ، إضافة إلى نشأته في الكوفة التي أمضى شبابه فيها، وكانت مكاناً خصباً للهو والانحراف ، وكان عند الخلفاء بمنزلة المسلي والمرفه أو المضحك لهم ، فجعلهم يغضون الطرف عنه وعن إباحته ،ولا نستغرب هذا القول من شاعر عاش في مجتمع برزت فيه الشعوبية وقويت شوكتها، مما أدى إلى نشر معتقداتها، كالزندقة، المستمدة من ديانات الفرس القديمة: زرداشتيه ومانويه ومزدكيه، وأغلب الظن أن المانوية كان أكثرها تأثيراً في عقول بعض الناس وقلوبهم في العصر العباسي[55]،اتصف شاعرنا بجرأة جعلته يخاطب الخليفة دون وازع أو معيق، يتحدث فيها عن الخمر، وكأنها موضوع إنساني عاديّ ، يجد من نفسه مدافعاً وقاضياً، ينفي التهمة عنه.كما كانت الحياه السياسية والاجتماعية مواتية للفرس في العصر العباسي، فجهروا بشعوبيتهم من غيرتعريف[56]، ولعل أبا الفرج بنى حكمه على أبي دلامة، بالاعتماد على ما أورده – هو نفسه – من أقوال وأخبار، جعله فيها بعيداً عن الدين، وأنه لا يحضر صلاة ولا يدخل مسجداً [57].

وصف شاعرنا الخمر فأكثر من التشبيهات والصور الفنية فيها، وكأنها عروس حار أمره فيها سنين طويلة حتى وجدها ، فيقول فيها : « ريح المسك – ترقرق في الإناء – شعاعها لهب السراج – تهش لها القلوب وتشتهيها » ، فأوصافها تجمع بين الخفة واللذة ، تصلح لأن تكون لمحبوبة أرادها الشاعر،هذا وقد وردت بكثرة في ديوانه [58]. إن المجاهرة في عرض السلوك الشخصي ظاهرة طبيعية ، يكشف فيها الإنسان عن سلوكه اليومي بصورة صريحة ، إلا أن صعوبة الأمر تزداد تعقيداً حينما يفضل شاعر مثل أبي دلامة الشرب واللهو على الحج ، بعد أن أُعطي المال لهذا الغرض، وهذا يدّل على مدى التحلل الاجتماعي عنده، روى صاحب الأغاني: فقال:« عزم موسى بن داود بن علي الهاشمي على الحج، فقال لأبي دلامة : أحجج معي ولك عشرة آلاف درهم، قال: هاتها ، فدفعت إليه ، فأخذها وهرب إلى السوار،فجعل ينفقها هناك ، ويشرب بها الخمر ، فطلبه موسى ، فلم يقدر عليه وخشي فوات الحج، فخرج فلما شارف القادسية ، إذا هو بأبي دلامة خارجاً من قرية إلى أخرى، وهو سكران ، فأمر بأخذه وتقييده وطرحه في محمل بين يديه ، ففعل ذلك به ، فلما سار غير بعيد ، أقبل على موسى قائلاً :

يا أيُّها النَّاسُ قُولُوا أجْمَعِين مَعاً
صَلَّى الإلهُ على مُوسَى بْنِ دَاودِ
كأنّ دِيبَاجَتَيْ خَدَّيْهِ مِنْ ذَهَب
إذا تَشَرَّفَ في أثْوَابِهِ السُّودِ
أمّا أبُوكَ فَعَيْنُ الجُودِ نَعْرِفُهُ
وَأَنْتَ أشْبَهُ خَلْقِ اللهِ بالجود

نُبِّئْتُ أَنَّ طَرِيقَ الحَجِّ مَعْطَشَةٌ
مِنَ الطِّلاءِ وَمَا شُرْبي بِتَصْرِيدِ
واللهِ ما بِيَ مِنْ خَيْرٍ فَتَطْلُبُنِي
في المُسْلِمِينَ وَمَا دِيني بِمَحْمُودِ
إنّي أَعُوذُ بِدَاوِدٍ وَتُرْبَتِه
مِنْ أَنْ أَحُجَّ بِكُرْهٍ يا بْنَ دَاوُدِ [59]

إن هذا المقطع له أهمية خاصة، فهو نقطة الارتكاز، ولحظة الانفجار العنيفة التي لم تتحملها نفس الشاعر، فباحت به للمجتمع ، فكان اختيار الأصوات المهموسة بوعي أو بلا وعي متنفساً للشاعر للخروج على المجتمع وتقاليده، ثم جاءت أصوات الطاء والصاد والعين التي تحمل صفة التحدي والانفجار تتردد بانتظام؛ لتعبر عن صوته الخارجي تجاه المجتمع، في حين أدت أصوات اللين (الألف والواو والياء) وأشباه اللين دوراً فعالاً في تخفيض الإحساس بالتمرد واستمراريته.

فهو يعكس واقع بعض الشعراء الذين عاشوا في ذلك العصر وكانوا على شاكلته ، ومما رواه صاحب الأغاني عن حب أبي دلامةَ للخمرة والنساء، بعض الأبيات التي يصر فيها على ما هو خارج عن العادات والتقاليد يقول: « مر أبو دلامة بنخاس يبيع الرقيق، فرأى عنده منهن من كل شيء حسن، فانصرف مهموماً، فدخل إلى المهدي، فأنشده :

إن كُنْتَ تَبْغي العَيْشَ حُلْواً صافياً
فالشِّعْرُ أَعْزِبْهُ وكن نَخّاسا
تَنَلِ الطّرائفَ مِنْ ظراف نُهَّد
يُحْدِثْنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ أعراساً
والرِّبحُ فيما بين ذلك راهِنٌ
سَمْحاً ببيعكَ كُنْتَ أو مَكّاسا
دارت على الشُّعْراءِ حُرْفَةُ نَوْبَة
فَتَجَرَّعوا من بعد كَأْسٍ كاسا
وَتَسَرْبَلوا قُمْصَ الكَسادِ فَحَاولوا
بالنَخْسِ كَسْباً يُذْهِبُ الإفلاسا [60]

تلين اللغة إذا لانت حياة أصحابها، فهي بنت البيئة، كما كان لشيوع مظاهر الرقة والترف،أثرٌ في لغة أبي دلامة، فمال إلى الرقة، وهذا ما أطلق لبعض العواطف عنانها وحريتها، فأصبحت ألفاظه سهلة بسيطة، وهي ألفاظ احتفظت ببعض الطوابع العربية القديمة وأضافت إليها ألفاظاً رقيقة عذبة تتناسب والعصر العباسي، عصر الترف واللذة.

تميز الشعر الاجتماعي عند أبي دلامة بنزعة التحرر من السلطة والنفور – أحياناً – منها ، فقد خرج عن عرف المجتمع ، وساعده على ذلك أمران ، أحدهما : قوة السلطان ؛ إذ كان يتكلم بعلمه وعلى مرأى ومسمع منه ، وهذا ما جعله يشعر بالقوة والاستمرارية، والثاني : أنه من أفراد المجتمع وطوائفه الذين تحللوا من روابطه ، فلم تكن عادات المجتمع وتقاليده لتقف في وجهة ، فلذلك ، وفي هذه الحالة ، إن من الصعب القول الجازم بأن المجتمع قد رفض أبا دلامة ، أو أن أبا دلامة هو الذي رفض المجتمع من خلال محاولة تحديد ردود فعل المجتمع لوجود من يحاول تعكير صفوته ومدى الهيمنة الاجتماعية في التعامل مع هذا الفرد لرفضه أو نبذه، وإنما هذا هو الواقع الذي يقبل أبا دلامة وهذا أبو دلامة يسير في هذا الواقع، فما فعله اجتماعياً، لم يكن مرفوضاً رفضاً قاطعاً، وإنما كان يتحرك في دائرة تسمح السلطة له – كما سمحت لغيره– بالتحرك، ولكن إذا ما وصلت إلى مكان غير مرغوب فيه، كالزندقة مثلاً ورفض الدين أو جزء منه، فإن السلطة لم تكن لتقف مكتوفة الأيدي، وإنما كانت لتضرب بيدٍ من حديد على كلّ مَن تسول له نفسه التحرك في مثل هذه القضايا.

الخاتمة:

إنّ دراسة ظاهرة التمرد في شعر أحد شعراء العصر العباسي من خلال قراءة نصوصه وتحليلها،وما أفرزته من أحداث وتناقضات ، لا تخلو من وجود بعض جوانب الخطر الديني والاجتماعي، إذا ما قيس بالذي تعارف عليه الناس في ذلك العصر، ومنها : طبيعة الحياة الاجتماعية، وما ظهر فيها من مجون، جعل الشاعر يفضل الخمر وشربها على السير وفق الشرائع الدينية والفرائض المطلوبة، كما وجد في ممارسة الحياة على ذلك النحو اللاهي العابث إعلانا عن حريته في السلوك وفي العقيدة جميعا،حتى إنه كان يجاهر بالقول،لا يخشى- أحياناً - جرح الذوق العام أو صدمه،ويبدو أن المجتمع نفسه لم يصدم به، بل تقبله وتقبل سلوكه وأشعاره الماجنة،مما جعل التطاول على المجتمع أمراً يكاد يكون مقبولاً، دون أدنى خوف أو رهبة من السلطان،فالشاعر يشاهد الواقع حوله بمنظاره الذاتي، وليس من المنظار الاجتماعي، فهو يسقط الكثير من اعتباراته،بينما يؤكد بعض الجوانب ويصب عليها اهتمامه.

وربما كان للحركات الدينية المتطرفة كالمانوية والزرادشتية أثرٌ في فكر أبي دلامة، وألفاظه وموقفه من الدين الاسلامي، وبخاصة أن هذه الحركات راحت تصول وتجول في مجتمع العصر العباسي،الأمر الذي انعكس على ضعيفي الإسلام في المجتمع، فأصبح لا يهمه أن يتحدى مجتمعه، فيتجاوز قيمة اجتماعية في سبيل متعة، وراح يجاهر بالمعصية ويعلن التمرد من خلال مواقف متكررة في أشعاره،وهذا لم يكن ليحدث لولا موافقة أولي الأمر آنذاك على ما يقوله أبو دلامة،فإذا كان الخليفة أو من يمثله يتقبل مثل هذه القضايا فماذا نتوقع مَن أبي دلامة وغيره من الشعراء؟

إنّ فكر الشاعر يؤخذ من فكر المجتمع وتعاليمه، وهذا ما حصل مع أبي دلامة، فلم يرفضه المجتمع؛ لأنه لم يأت بجديد، وإنما طبيعة المجتمع آنذاك كانت تتقبل مثل هذه الأشعار، وبالتالي هو لم يخرج عما يطلبه المجتمع.

الهوامش:

1. عطوان، حسين: مقدمة القصيدة العربية، ط دار المعارف، مصر، د.ت: 15.
2. نور الدين، حسن جعفر: شعراء التمرد في الأعصر العباسية، ط رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع،ط، بيروت، 2003: 16.
3. أمين، أحمد: ضحى الإسلام، ط مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر، ط2، 1933: 132 / 1 – 133 .
4. متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، ط مصر، 1984 :11.
5. ينظر ضيف، شوقي: العصر العباسي الاول، ط دار المعارف، مصر، ط2، 1969: 282- 283.
6. ينظر، نور الدين، حسن جعفر: شعر التمرد في الأعصر العباسية: 161 – 162.
7. المرجع السابق: 246.
8. المرجع السابق: 245.
9. ينظر الجهشياري، أبو عبدالله بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1938: 87 – 117.
10. ينظر، حسين ، طه: من تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – ط دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1979: 76.
11. ينظر، إسماعيل، عز الدين: في الأدب العباسي – الرؤية والفن – ط دار النهضة المصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1975 : 265.
12. ينظر الأصفهاني، الأغاني: 407 / 10 – 408، وينظر في الكتب التي ترجمت له:

- ابن المعتز، طبقات الشعراء: 84.

– المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر 4 / 314.
– الجهشياري: الوزراء والكتاب 87 – 117.
– ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: 320 / 2 – 321.
– النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب: 36 / 4.
– حسين، طه: من تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول: 76.
– ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول: 295.
13. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: الأغاني، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط2، 1997: 10 / 407– 408.
14. بن المعتز، عبدالله: طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ،ط1، 1998 :84 .
15. النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة 4 / 36.
16. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط دار الثقافة بيروت، 1964: 2 / 661.
17. اليافعي، عبدالله بن علي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، د.ت / 341.
18. لسان العرب، مادة (مَرَدَ)
19. سورة التوبة، آية 10.
20. لسان العرب، مادة مَرَدَ.
21. المطارنة، خولة محمد زايد: العلاقة بين الضغوط النفسية والتمرد، جامعة مؤته، كلية العلوم التربوية، قسم علم النفس، رسالة ماجستير، مخطوطة، 1995: 7.
22. أبو دلامة، ديوانه: تحقيق إميل بديع يعقوب، ط دار الجيل، بيروت، 1994: 64 – 66.
23. كوهن، جان: بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ط دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 1986 :178.
24. إسماعيل، عز الدين: في الأدب العباسي: 265.
25. سلطان، منير: بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ط منشأة المعارف، الإسكندرية،ط2 ، 1993: 135.
26. أبو دلامة، ديوانه: 66–65.
27. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار النهضة المصرية، القاهرة، 1948: 320 / 2 – 321 ، وحمَّادة بنت عيسى هي زوجة المنصور ، وعيسى المذكور هو عم المنصور .
28. إبراهيم ، زكريا: سيكولوجية الفكاهة والضحك، ط مصر، د.ت: 106.
29. أبو دلامة، ديوانه: صفحات: (47، 61، 71، 109، 112)
30. أبو دلامة، ديوانه: 43.
31. ينظر العشماوي، محمد زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، ط دار المعرفة مصر، ط1، 1999: 62 – 63.
32. أبو دلامة، ديوانه: 128، وينظر ديوانه صفحة: (71، 129).
33. الأصفهاني، الأغاني: 10 / 415.
34. أبو دلامة، ديوانه: 76.
35. العشماوي، محمد زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي: 171.
36. أبو دلامة، ديوانه: 122 – 123.
37. المرتضى، الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي: آمالي المرتضى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار الكتاب العربي، بيروت، 1967: 1 / 127.
38. أبو دلامة، ديوانه: 122 – 123.
39. الأصفهاني، الأغاني: 10 / 413.

40. أبو دلامة، ديوانه: 117.
41. ينظر علي السيد، عز الدين: التكرير بين المثير والتأثير، ط عالم الكتب، ط2، 1986: 613.
42. أبو دلامة، ديوانه: 57.
43. حسين، طه: حديث الأربعاء، ط دار المعارف، مصر، 1958: 81.
44. المقدسي، أنيس: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977: 54 وما بعدها.
45. الأصفهاني، الأغاني: 431 / 10، كما وردت الأبيات في الديوان: 43.
46. الرباعي، عبد القادر: عرار (الرؤية والفن قراءة من الداخل) ، ط أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، 2000: 108.
47. ينظر زكي، أحمد: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ط دار المعارف، مصر، 1971: 117.
48. داود، جرجس: الزندقة والزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري،ط، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2004: 273.
49. هدّارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري، ط دار المعارف، مصر، ط2، 1970: 231.
50. المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط3، 1958: 314 / 4.
51. أبو دلامة، ديوانه: 71 – 72.
52. المصدر السابق: 129 – 130.
53. ابن المعتز، عبدالله، طبقات الشعراء: 60.
54. هدّارة، محمد مصطفى: اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري: 244.
55. الحوفي، أحمد محمد: تيارات ثقافية بين العرب والفرس، ط دار النهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ط3، 1978: 127 – 128.
56. المصدر السابق: 152.
57. ضيف شوقي، العصر العباسي الأول: 296.
58. أبو دلامة، ديوانه: صفحات: (40، 48، 62، 71، 76، 95، 110)
59. أبو دلامة، ديوانه: 58 – 59.
60. المصدر السابق: 69 – 70.

مصادر البحث ومراجعه

اعتمدت في هذا البحث على ديوان "أبي دلامة" تحقيق إميل بديع ط دار الجيل. بيروت. 1994؛ لأنها طبعة خلت من التصحيف والتحريف الموجود في طبعات أخرى لمحققين آخرين. وفيما يلي قائمة بالمصادر والمراجع التي أفاد منها البحث:

1. القرآن الكريم.
2. إبراهيم، زكريا: سيكولوجية الفكاهة والضحك، ط مصر، مصر، د.ت.
3. إسماعيل ،عزالدين : في الأدب العباسي – الرؤية والفن – ط دار النهضة المصرية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1975 .
4. الأصفهاني ،أبو الفرج علي بن الحسن : الأغاني ،ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،ط2 ،1997.
5. أمين ،أحمد : ضحى الإسلام ، ط مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر،ط 2 ،1933.
6. التطاوي، عبدالله: النظرية والتجربة عند أعلام الشعر العباسي، ط دار غريب، القاهرة، ط 1 ،1999.
7. الجهشياري، أبو عبدالله بن عبدوس: الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، ط مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1 ، 1938.
8. حسين، طه : حديث الأربعاء ،ط دار

المعارف،مصر،1958.
9. حسين ،طه: من تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – ط دار العلم للملايين ،بيروت،ط3، 1979.
10. الحوفي ،أحمد محمد ، تيارات ثقافية بين العرب والفرس ،ط دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة ،القاهرة ،ط 3 ،1978.
11. ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،ط دار النهضة المصرية ، القاهرة،1948.
12. داود، جرجس: الزندقة والزنادقة في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري، مجد للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004.
13. الرباعي ،عبد القادر : عرار (الرؤية والفن قراءة من الداخل)،ط أزمنة للنشر والتوزيع،عمان،2002.
14. زكي، أحمد: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، ط دار المعارف، مصر، 1971.
15. زيدان؛ جرجي: تاريخ التمدن الإسلامي، تحقيق حسين مؤنس، ط دار الهلال، د.ت .
16. سلطان، منير: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ط منشأه المعارف، الإسكندرية،ط2، 1993.
17. ضيف، شوقي: العصر العباسي الأول، ط دار المعارف، مصر، ط2، 1969.
18. علي السيد، عز الدين: التكرار بين المثير والتأثير، ط عالم الكتب، ط2، 1986.
19. العشماوي، محمد زكي: موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، ط دار المعرفة، مصر، ط1، 1999.
20. عطوان، حسين: مقدمة القصيدة العربية، ط دار المعارف، مصر، د.ت.
21. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم: الشعر و الشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر، ط دار الثقافة، بيروت، 1964.
22. كوهن، جان:بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ط دار توبقال، الدار البيضاء، ط1 1986.
23. متولي، عبد الستار السيد: أدب الزهد في العصر العباسي، ط مصر، 1984.
24. المرتضى ،الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي – أمالي المرتضى ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط دار الكتاب العربي ،بيروت ،1967.
25. المسعودي ،علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،ط المكتبة التجارية الكبرى ،ط 3، مصر،1958.
26. ابن المعتز: طبقات الشعراء، تحقيق عمر فاروق الطباع، ط دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1998
27. المقدسي، أنيس: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977.
28. ابن منظور ،لسان العرب.
29. نور الدين ، حسن جعفر : شعر التمرد في الأعصر العباسية ، ط رشاد برس للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ،2003.
30. النويري، شهاب الدين: نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة.
31. هدارة ،محمد مصطفى : اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري ،ط دار المعارف ،مصر ،ط2 ،1970.
32. اليافعي، أبو محمد عبدالله بن علي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط دار المعارف العثمانية، حيدر أباد

، د.ت .

الرسائل الجامعية

33. المطارنة ،خوله محمد زايد: العلاقة بين الضغوط النفسية والتمرد ،جامعة مؤتة ،كلية العلوم التربوية ،قسم علم النفس ،رسالة ماجستير، مخطوطة ، 1995 .